

## تفسير سورة المؤمنون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكُوتَةِ فَاعِلُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ﴿فَمَنْ ابْتَدَعَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الاوصاف ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ قال ابن عباس: خاشعون ساكنون. وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وقتادة، والزهرى. وعن على بن أبى طالب: الخشوع: خشوع القلب. وقال الحسن البصرى: كان خشوعهم فى قلوبهم، فغضوا بذلك ابصارهم، وحفظوا الجناح. والخشوع فى الصلاة إنما يحصل بمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحيتذ تكون راحة له وقرة عين، كما قال النبي ﷺ، فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبِّبَ إِلَى الطَّيِّبِ والنَّسَاءِ، وجعلت قرّة عيني فى الصلاة» (١). ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أى: عن الباطل، وهو يشمل: الشرك - كما قاله بعضهم - والمعاصى وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكُوتَةِ فَاعِلُونَ﴾: الاكثر على أن المراد بالركوة هاهنا زكاة الاموال. وقد يحتمل أن يكون المراد بالركوة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والذنوب، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزُّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، على أحد القولين فى تفسيرها، وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مراداً، وهو زكاة النفوس وزكاة الاموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنْ ابْتَدَعَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السرارى، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنْ ابْتَدَعَ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أى: غير الأزواج والإماء ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: المعتدون. وقد استدلل الإمام الشافعى، رحمه الله، ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ

أيمانهم﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال: ﴿فَمَنْ ابْتغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاعِدُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِآمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أى: إذا أؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان» (١).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أى: يواظبون عليها فى مواعيدها، كما قال ابن مسعود: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أى العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله». أخرجاه فى الصحيحين. وفى مستدرک الحاكم قال: «الصلاة فى أول وقتها» (٢). وقد انتصح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها.

وَمَا وَصَّوهُمُ تَعَالَى بِالْقِيَامِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ وَالْأَعْمَالِ الرَّشِيدَةِ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفرج أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن» (٣). وروى ابن أبى حاتم عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل فى الجنة ومنزل فى النار، فإن مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾» (٤). فالؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له - أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى بردة، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى». وفى لفظ له: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دُفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: هذا فكأكك من النار». فاستحلف عمر بن عبد العزيز أباً بردة بالله الذى لا إله إلا هو، ثلاث مرات، أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ، قال: فحلف له (٥).

قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مریم: ٦٣]، وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جبیر: الجنة بالرومية هى الفردوس. وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً ﴿٢﴾ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴿٤﴾ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِتُونَ ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَعْسُوتٌ ﴿٧﴾﴾

(١) البخارى (٣٣)، ومسلم (٥٩ / ١٠٧).

(٢) البخارى (٥٩٧٠) ومسلم (٨٥ / ١٣٧)، والحاكم (١ / ١٨٨) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٣) البخارى (٢٧٩٠، ٧٤٢٣) ولم يعزه صاحب التحفة (١٠ / ٢٧٨) إلا للبخارى.

(٤) ابن ماجه (٤٣٤١) وفى الزوائد: «هنا إسناد صحيح على شرط الشيخين»، وصححه الألبانى.

(٥) مسلم (٢٧٦٧ / ٤٩).

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم، عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون. وقال ابن عباس: ﴿مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ قال: صَفْوَةُ الْمَاءِ. وقال مجاهد: ﴿مِنْ سَلَالَةٍ﴾ أى: من منى آدم. قال ابن جرير: وإنما سُمِّيَ آدَمَ طِينًا لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْهُ. وقال قتادة: اسْتَلَّ آدَمُ مِنَ الطِّينِ. وهذا أظهر فى المعنى، وأقرب إلى السياق، فإن آدم، عليه السلام، خلق من طين لآرب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. روى الإمام أحمد عن أبي موسى، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قُبْضَةٍ قُبْضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَلْبِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَيْثُ وَالطَّيْبُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ». وقد رواه أبو داود والترمذى، وقال الترمذى: حسن صحيح<sup>(١)</sup>.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مُهِينٍ﴾ [السجدة ٧، ٨] أى: ضعيف، كما قال: ﴿أَنْتُمْ نَخْلَقُكُمْ مِنْ مَاءٍ مُهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾، معنى: الرحم مُعَدٌ لذلك مهياً له ﴿إِنِّي قَدَرْتُ مَطْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٢، ٢٣]، أى: إلى مدة معلومة وأجل معين حتى استحکم وتثقل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة؛ ولهذا قال هانئا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْثَةَ عَلْفَةً﴾ أى: ثم صَيَّرْنَا النَّفْثَةَ، وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل - وهو ظهره - وترائب المرأة - وهى عظام صدرها ما بين الترقوة إلى التندوة - فصارت علقه حمراء على شكل العلقه مستطيلة. قال عكرمة: وهى دم. ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلْفَةَ مُضْفَةً﴾: وهى قطعة كالبضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْفَةَ عِظَامًا﴾ معنى: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبيها وعروقها. ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أى: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أى: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرك وصار ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾. ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْبَارِكِينَ﴾.

روى الإمام أحمد عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إِنْ أَحَدَكُمْ لِيُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضفة مثل ذلك، ثم يرمل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقى أو سعيد، فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل ليعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها». أخرجاه<sup>(٢)</sup>. وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب، ماذا أشقى أم سعيد؟ أذكر أم أنسى؟ فيقول الله، فيكتبان ويكتب عمله، وأثره، ومصيبته، ورزقه، ثم تطوى الصحيفة، فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص». وقد رواه مسلم فى صحيحه نحوه<sup>(٣)</sup>.

(١) المسند (٤ / ٤٠٠) وأبو داود (٤٦٩٣) والترمذى (٢٩٥٥).

(٢) المسند (٣٦٢/٤) والبخارى (٦٥٩٤) ومسلم (١ / ٢٦٤٣).

(٣) المسند (٧ / ٤) ومسلم (٢٦٤٤، ٢٦٤٥، ٢ / ٣).

وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول: أى رب، نطفة. أى رب، علقة. أى رب، مضغة. فإذا أراد الله خلقها قال: يا رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ فما الرزق والاجل؟» قال: «فذلك يكتب فى بطن أمه». أخرجاه فى الصحيحين (١).

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ يعنى: حين ذكر قدرته ولطفه فى خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوى الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾. وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعنى: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْتَخُونَ﴾ يعنى: النشأة الآخرة. ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ١٧٠] يعنى: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كل عامل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾

لما ذكر تعالى خلق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خلق السموات والأرض مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا فى أول ﴿آلَم﴾ السجدة، التى كان رسول الله ﷺ يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة، فى أولها خلق السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

وقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾: قال مجاهد: يعنى السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وهكذا قال مهنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أى: ويعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. وهو - سبحانه - لا يحجب عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما فى وعرة، ولا بحر إلا يعلم ما فى قعره، يعلم عدد ما فى الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ مِنْ ظَلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدَرُ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَدِيرُونَ﴾ ﴿فَأَنشَأْنَا لَكَ بِهِ جَنَّتٍ مِنْ تَحْتِهَا وَأَعْتَبْنَا لَكَ فِيهَا فَوْقَكُ كَثِيرَةً وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِللَّكْلِ﴾ ﴿وَإِنَّ لَكَ فِي آتِنَاكُمْ لَعِبْرَةً نُسْفِكُ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكَ فِيهَا مَنَفِعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبده التى لا تعد ولا تحصى، فى إنزاله القطر من السماء ﴿بِقَدْرٍ﴾ أى:

بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفى الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقى والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضى التى تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتل دمتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما فى أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجرزة»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان أمطارها، فيأتى الماء يحمل طينا أحمر، فيسقى أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه؛ لأن أرضهم سبخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد فى الأرض، وجعلنا فى الأرض قابلية له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى. وقوله: ﴿وَرَأَيْنَا غُحَابٍ بِهٖ قَادِرُونَ﴾ أى: لو شتتا ألا تمطر لعلنا، ولو شتتا لصرفناه عنكم إلى السبخ والبرارى والبحار والقفار لعلنا، ولو شتتا لجعلناه أجاباً لا يتضغ به لشرب ولا لسقى لعلنا، ولو شتتا لجعلناه لا ينزل فى الأرض، بل ينبجر على وجهها لعلنا. ولو شتتا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تتصفون به لعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبا فراتا زلالا، فيسكنه فى الأرض ويسلكه بناييع فى الأرض، فيفتح العيون والأنهار، فيسقى به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتفتسلون منه وتطهرون وتنظفون، فله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نُخَيْلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعنى: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أى: بساتين وحدائق ذات بهجة، أى: ذات منظر حسن. وقوله: ﴿مِّنْ نُخَيْلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أى: فيها نخيل وأعنان. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشىء وبين نظيره، وكذلك فى حق كل أهلى إقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره. وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أى: من جميع الثمار، كما قال: ﴿بُيُتٌ لَّكُمْ فِي الزَّرْعِ وَالزَّيْتُونِ وَالنَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١]. وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شىء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعنى: الزيتون. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طورا إذا كان فيه شجر، فإن عرى عنها سعى جبالا لا طورا، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى بن عمران، عليه السلام، وما حوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون. وقوله: ﴿وَنَبْتٌ بِالذَّهْنِ﴾ أى: تخرج بالدهن، أو تاتى بالدهن ﴿وَصَيْغٌ﴾ أى: آدم ﴿لِللَّكَلِينِ﴾ أى: فيها ما يتضغ به من الدهن والاصطباح.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّسَبِّحُكُمْ بِمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ : يذكر تعالى ما جعل لخلقهم فى الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين قرث ودم، ويأكلون من حملائها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويوكبون ظهورها ويحملونها الاحمال النقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِاللَّهِ إِلَّا سَبْقُ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَنَازِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ قَدَرْتُمْ سَوْأَهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح ، عليه السلام ، حين بعثه إلى قومه ، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد ، وانتقامه من أشرك به وخالف أمره وكذب رسله ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي : الا تخافون من الله في إشراككم به ؟! فقال الملا - وهم السادة والاكابر منهم : ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون : يترفع عليكم ويتعاطم بدعوى النبوة ، وهو بشر مثلكم ، فكيف أوحى إليه دونكم ؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي : لو اراد ان يبعث نبيا ، لبعث ملكا من عنده ولم يكن بشرا ! ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ أي : يبعثه البشر في آبائنا الاولين . يعنون بهذا اسلافهم واجدادهم والامم الماضية . وقوله : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ﴾ أي : مجنون فيما يزعمه ، من ان الله أرسله إليكم ، واختصه من بينكم بالوحي ﴿فَرْتَضُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي : انتظروا به ريب المتون ، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه .

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَن اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ آمُرْنَا وَكَارَ السُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَنْبِيَاءٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾﴾

يخبر تعالى عن نوح ، عليه السلام ، أنه دعا ربه ليستنصره على قومه ، كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الاخرى : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانصُرْ﴾ [القم: ١٠] ، وقال ههنا : ﴿رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعه السفينة وإحكامها وإتقانها ، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، أي : ذكرنا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار ، وغير ذلك ، وأن يحمل فيها أهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أي : سبق فيه القول من الله بالهلاك ، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله ، كابنه وزوجته ، والله أعلم . وقوله : ﴿وَلَا تُخَاطَبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرَقُونَ﴾ أي : عند معاينة إنزال المطر العظيم ، لا تأخذنك رافة بقومك ، وشفقة عليهم ، وطمع في تأخيرهم لعلمهم يؤمنون ، فإني قد قضيت أنهم معرَقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان . وقد تقدمت القصة مبسطة في سورة هود (١) .

وقوله : ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ، كما قال : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْغَبُونَ . فاستهروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتفرقوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤] . وقد امتثل نوح ، عليه السلام ، هذا ، كما قال تعالى : ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١] . فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه ، وقال تعالى : ﴿وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ . وقوله : ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾

أى: إن في هذا الصنيع - وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين - ﴿آيَاتٍ﴾ أى: لحججا ودلالات واضحة على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، قادر على كل شيء، عليم بكل شيء. ﴿وَأَن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أى: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ لِيُنذِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَذَكِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَن يَقُولُوا إِنَّا هُمْ آلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ أَنَّا كُفَرْنَا ﴿٣١﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَوْنَهَا مِنَ الْخَيْبَةِ اللَّهُمَّ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ بِأَكْبَارِهِمْ فِي سُبُلِهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا تَشَاءَ نَبِّئُوهُمْ غِيَابَهُم بِآيَاتِنَا إِنَّهُم مُّجْرِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِن أَسْفَعُ بِالنِّاصِرِ نَفْسُ الْكَاذِبِ إِذَا لَخِيطُونُ ﴿٣٤﴾ أَيْبُدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُحْجَرُونَ ﴿٣٥﴾ هِيَآتَ هِيَآتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَةً ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَعَجَلْنَهُمْ عُنُقًا فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

ربع

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين - قيل: المراد بهم عاد، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ - وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. فكذبوه وخالفوه، وأبوا عن اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشري، وكذبوا بقاء الله في القيامة، وأنكروا المعاد الجسماني، وقالوا: ﴿أَبَدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُحْجَرُونَ﴾. هِيَآتَ هِيَآتَ لِمَا تُوْعَدُونَ: أى: بعيد بعيد ذلك. ﴿إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: فيما جاءكم به من الرسالة والنبذة والإخبار بالمعاد ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ: أى: استفتح عليهم الرسول واستصرر ربهم عليهم، فأجاب دعاءه ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيَةً﴾ أى: بمخالفتك وعنادك فيما جئتكم به، ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ أى: وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم. والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوى الباردة ﴿تَدْمِرُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاجِدُهُمْ﴾ [الاحقاف: ٢٥].

وقوله: ﴿فَعَجَلْنَهُمْ عُنُقًا﴾ أى: صرعى هللكى كفتاء السيل، وهو الشيء الحقيقير الثاقه الهالك الذى لا يتسع بشيء منه. ﴿فَبَعَدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] أى: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرُونًا آخَرِينَ﴾ مَا تَسْبِقُ مِن أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَمَرًا كُلِّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رَّسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتَيْنَاهُ بِمَعْضَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرُونًا آخَرِينَ﴾ أى: أما وخلائق ﴿وَمَا تَسْبِقُ مِن أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾، معنى: بل يؤخذون حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم، أمة بعد

أمة، وقرنا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وخلفاً بعد سلف ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَفْرًا﴾: قال ابن عباس: يعني يتبع بعضهم بعضاً، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبُوا الطَّائِفَةَ لِمَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنُ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رُّسُولَهَا كَذَّبُوهُ﴾ يعني: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿بِمَا حَسَرْنَا عَلَى الْبَاطِلِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]. وقوله: ﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ أي: أهلكتناهم، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أي: أخباراً واحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ الآية [سبا: ١٩] ﴿ثُمَّ بَدَأْنَا مِنْ قَبْلِهَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَأَنْزَلْنَا لِسْرِيبٍ يُسْرِبُ وَيَلْجَأُ قَوْمَهُمَا لَنَا عبيدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى، عليه السلام، وإخاه هارون إلى فرعون وملته بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والالتقاد لامرهما، لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الوسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملاه، وأغرقهم في يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب - وهو التوراة - فيها أحكامه وأوامره ونواهي، وذلك بعد ما قسم الله فرعون والقطب، وأخضعهم أخذ عزيز مقتدر؛ وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامه، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِعَذَابِنَا لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٤٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليهما السلام، أنه جعلهما آية للناس: أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: قال ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة. قال ابن عباس: وقوله: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعني: ماء ظاهراً. وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: أنهار دمشق. وقال مجاهد: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ قال: عيسى ابن مريم وأمه، حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها. وأقرب الأقوال في ذلك ما رواه العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لَكَ رَبًّا حَبِيبًا﴾ [مريم: ٢٤]. وقال الضحاك، وقتادة: هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لانه المذكور في الآية الأخرى. والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

﴿يَتَّبِعُهَا الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَعَمَلُوا صَالِحًا إِنَّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّ هَذِهِ

أَمْ تَكْفُرُونَ أَنَّمَا يُبَدِّلُ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَقَدْ أَصَابَتْكُمْ قُلُوبُهُمْ وَأَنَا رَئِيفٌ عَلَيْهِمْ ۖ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۚ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥١﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَضَبِنَا وَسَخِيمِ آيَاتِنَا أَتَيْتُمُوهَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَكْفُرُوا بِهَا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَضَبِنَا وَسَخِيمِ آيَاتِنَا أَتَيْتُمُوهَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَكْفُرُوا بِهَا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَضَبِنَا وَسَخِيمِ آيَاتِنَا أَتَيْتُمُوهَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَكْفُرُوا بِهَا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَضَبِنَا وَسَخِيمِ آيَاتِنَا أَتَيْتُمُوهَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَكْفُرُوا بِهَا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَضَبِنَا وَسَخِيمِ آيَاتِنَا أَتَيْتُمُوهَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَكْفُرُوا بِهَا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فذل هنا على أن الحلال عون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل-خير، قولاً وعملاً ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً. قال الحسن البصري في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: أما والله ما أمروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقال سعيد بن جبيرة، والضحاك: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعني: الحلال. وفي الصحيح: «ما من نبي إلا رعى الغنم». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة»<sup>(١)</sup>. وفي الصحيح: أن داود، عليه السلام، كان يأكل من كسب يده<sup>(٢)</sup>. وفي الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سُدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى»<sup>(٣)</sup>.

وقد ثبت في صحيح مسلم، وجامع الترمذى، ومسنَد الإمام أحمد - واللفظ له - عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَأْتِيهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وقال: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوَا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغدّى بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، فأنى يستجاب لذلك». وقال الترمذى: حسن غريب<sup>(٤)</sup>.

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: دينكم - يامعشر الأنبياء - دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة «الأنبياء».

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَضَبِنَا﴾ أي: في غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين حينئذٍ وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَبْ لِكُلِّ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ زُرًى﴾ [الطارق: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَمْتَعُوا وَيَبْهَتُوا بِالْأُمَلِ فَسَوْفَ يَعْتَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّاءٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ نَهْرٌ مُسْرِقٌ فَلَهُمْ فِي الْغُرَاتِ بَلَّ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: ايظن هؤلاء المغرورون أن ما تعطيه من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ كلا، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥]، لقد أخطوا في ذلك وخاب

(٢) البخارى (٢٠٧٤).

(١) البخارى (٢٢٦٢).

(٣) البخارى (١١٣١) ومسلم (١١٠٩ / ١٨١).

(٤) مسلم (١٠١٥ / ٦٥) والترمذى (٢٩٨٩) والسند (١٥٩ / ٦).

رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجا وإنظارا وإملاء؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الآية [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزَادُوا فِيهَا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمَلِّئُهُمْ﴾ الآية [القلم: ٤٤ ، ٤٥] وقال: ﴿ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى ﴿عَبِيدًا﴾ [المدثر: ١١- ١٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ الآية [سبا: ٣٧] والآيات في هذا كثيرة.

قال قتادة في قوله: ﴿أَبْخَسُونَ أَنَّمَا مُنِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال: مَكَرَ اللهُ بِالْقَوْمِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، يَا بَنَ آدَمَ، فَلَا تَعْتَبِرُ النَّاسَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، وَلَكِنْ اعْتَبِرْهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ وَأُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا شَاقِقُونَ

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أى: هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصرى: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمانا ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى [إخباراً عن مريم، عليها السلام]: ﴿وَوَصَّيْتُ بَكْلَمَاتٍ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ [التحریم: ١٢]، أى: أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو بما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أى: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدهونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفه له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أى: يعطون العطاء وهم خائفون إلا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشرط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما روى الإمام أحمد عن عائشة؛ أنها قالت: يارسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هو الذى يسرق ويغش ويشرى الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يابنت أبى بكر، يابنت الصديق، ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل». وهكذا رواه الترمذى وقال: «لا يابنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون الا يقبل منهم»، ﴿وَأُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾<sup>(١)</sup> وقد قرأ آخرون هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أى: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون والمعنى على القراءة الأولى - وهى قراءة الجمهور: السبعة وغيرهم - أظهر؛ لأنه قال: ﴿وَأُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لاوشك الا يكونوا من السابقين، بل من المتصدين أو المقصرين، والله تعالى اعلم.

(١) المستد (٦ / ١٥٩) والترمذى (٣١٧٥)، والحديث رواه ابن ماجه (٤١٩٨) وقال الالبانى: «حسن».

﴿ وَلَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبْلُغُ بِالْحَقِّ وَهُوَ لَا يَظْلُمُونَ ﴾ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَقٌّ إِذَا أَخَذْنَا مَتْرَفِهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْتَرُوا أَيُّومَ الْيَوْمِ الْيَوْمِ إِنَّا نُنصِرُونَ ﴿٦٥﴾ فَكَانَتْ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكَبُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِنِيرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا: أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي: إلا ما تطيق جملة والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبْلُغُ بِالْحَقِّ﴾ بمعنى: كتاب الاعمال ﴿وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ﴾ أي: لا يبخسون من الخير شيئاً، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين. ثم قال منكرها على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أي: غفلة وضلالة ﴿مِّنْ هَذَا﴾ أي: القرآن الذي أنزله على رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾: عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ أي: سيئة ﴿مِّنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ يعني: الشرك ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال: لا يبد أن يعملوها. وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وغير واحد. وقال آخرون: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أي: قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا يبد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحق عليهم كلمة العذاب. وروى نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهو ظاهر قوى حسن.

وقوله: ﴿حَقٌّ إِذَا أَخَذْنَا مَتْرَفِهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ يعني: حتى إذا جاء ستر فيهم - وهم السعداء المتعمون في الدنيا - عذاب الله وبأسه وتقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ أي: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَقَرْنِي وَالْمُكَدِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا . إِن لَّدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ الآية [الزمل: ١١ - ١٢]، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ فَادَّوَأَ وَلَات جِن مِّنَاصِرٍ﴾ [ص: ٢٣]. وقوله: ﴿لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مَنَّا لَا تُنصِرُونَ﴾ أي: لا يجيركم أحد مما حل بكم، سواء جارتكم أو سكتكم، لا محيد ولا مناص ولا وذر، لزم الأمر ووجب العذاب.

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿فَكَانَتْ آيَاتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكَبُونَ﴾ أي: إذا دعيتم أيتم، وإن طلبتم امتنعتم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكُ بِهِ لُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]. وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِنِيرًا تَهْجُرُونَ﴾: في تفسيره قولان، أحدهما: أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبانتهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولاهله، فعلى هذا الضمير في ﴿بِهِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه الحرم، أي: مكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام. والثاني: أنه ضمير للقرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: «إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة» إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. والثالث: أنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذي أظهره الله عليهم، وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء. وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه، وليسوا به.

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم بِالْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ أَتَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴿٧١﴾ بَلْ أُنزِلَتْ بِهِمْ آيَاتُهُمْ مِنْ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَهُمْ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لاسيما آبائهم الذين ماتوا في الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا آتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آتاء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم عن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضى عنهم. وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾: إذا والله يجدون في القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه، فهلكوا عند

ثم قال منكرا على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي: أنهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيافته التي نشأ بها فيهم، أفقدون على إنكار ذلك والباطة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته. وهكذا قال المغيرة بن شعبة لثابت كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾: يحكى قول المشركين عن النبي ﷺ أنه يقول القرآن، أي: افتراه من عنده، أو أن به جنونا لا يلدرى ما يقول. وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن، فإنه قد آتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الأبدين؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم بِالْحَقِّ كَذِبُونَ﴾: يحتمل أن تكون هذه جملة حالية، أي: في حال كراهة أكثرهم للحق، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَتَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾: قال مجاهد، وأبو صالح والسدي: الحق هو الله عز وجل، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿وَلَوْ نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَفَلَمْ يَقْسِمُوا بِرَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ الْإِنْفَاقَ﴾ [الإسراء: ١٠٠] وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]، ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم،

وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتدييره خلقه، تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه. ثم قال: ﴿بَلْ أَنْتَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ يعني: القرآن ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ نَسْأَلُهُمْ خُرْجًا﴾: قال الحسن: اجرا ﴿فَخُرْجَ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي: أنت لا تسألهم اجرة ولا جملا ولا شيئا على دهرتك إياهم إلى الهدى، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقال: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقال: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْوَعْدَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ﴾ روى الإمام أحمد عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أتاه - فيما يرى النائم - ملكان، فقدم أحدهما عند رجله، والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه: اضرب مثل هذا ومثل أمته. فقال: إن مثله ومثل أمته، كمثل قوم سَفَرُ انتهوا إلى رأس مَقَاذِرِهِمْ، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرية، فقال: أرايتم إن أوردتكم رياضاً معشبة، وحياضاً رواءً تبعوني؟ فقالوا: نعم. قال: فانطلق، فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواءً، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألكم على تلك الحال، فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواءً أن تبعوني؟ قالوا: بلى. قال: فإن بين أيديكم رياضاً معشبة من هذه، وحياضاً هي أروى من هذه، فاتبعوني. قال: فقالت طائفة: صدق والله، لتبعته. وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه (١).

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي: عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تمسك بحجزكم: هلم عن النار، هلم عن النار، وتغلبوني وتتفاحمون فيها تقاحم الفرائس والجنادب، فأوشك أن أرمض حجركم وأنا فرطكم على الحوض، فتردون على معا وأشتاتا، أعرفكم بسيمانكم وأسماكنكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل في إبله، فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين: أي رب، قومي، أي رب أمي. فيقال: يا محمد، إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري على أعقابهم، فلا عرف أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادى: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئا. قد بلغت، ولا عرف أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء، ينادى: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك شيئا، قد بلغت، ولا عرف أحدكم يأتي يوم القيامة يحما فرسا لها حمحة، فينادى: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئا، قد بلغت، ولا عرف أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من آدم، ينادى: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئا قد بلغت» (٢).

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ﴾ أي: لعادلون جائرون منحرفون. تقول العرب: نكب فلان عن الطريق: إذا زاغ عنها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ اللَّجْأِ فِي طِفْلَانِهِمْ بَعْمَهُونَ﴾: يخبر تعالى عن غلظتهم في

(١) المسند (٢٤٠٢)، وقال الشيخ أحمد شام: «إسناده صحيح».

(٢) كشف الاستار (٩٠٠)، وقال الهيثمي في الزوائد (٨٥/٣): «رواه أبو يعلى والبيهقي، ورجال الجميع ثقات».

كفرهم بأنه لو ازاح عِلْمُهُمُ وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطمعانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ قَدْ قَالُوا رَبُّهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَقُولُ عَلَى الثَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧ - ٢٩] فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرَّعُونَ﴾ حتى إذا فتحنا عليهم باباً ما دا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ وهو الذي ذرأكم في الأرض وإلى محشرن ﴿وهو الذي يحيى ويميت وله تختلِفُ الليل والنهار أفلا تعقلون﴾ بل قالوا مثل ما قال الأولون ﴿قالوا أيهنا ميتنا وموتنا مبعوثون﴾ لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل إن هذا إلا أسطير الأولين ﴿

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ أى: ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرَّعُونَ﴾ أى: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغيرهم ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أى: ما خضعوا ﴿وَمَا يَضُرَّعُونَ﴾ أى: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿قُولُوا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْمَاءٍ تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنعام: ٤٣].

عن ابن عباس، أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز - يعنى: الوبر والدم - فانزل الله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا﴾ الآية. وهكذا رواه النسائي<sup>(١)</sup> وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قریش حين استعصوا فقال: «اللهم اعنى عليهم بسج كسج يوسف»<sup>(٢)</sup>.

وقوله: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ما دا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾ أى: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بفتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبلسوا من كل خير، وأبوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

ثم ذكر تعالى نعمه على عباده أن جعل لهم السمع والابصار والأفئدة، وهى العقول والفهوم، التى يدركون بها الأشياء، ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله، وأنه الفاعل المختار لما يشاء. وقوله: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أى: ما اقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف: ١٠٣].

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، فى برئته الخليفة وذرته لهم فى سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والأخريين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً، ولا ذكراً ولا أنثى، ولا جليلاً ولا حقيراً، إلا أعاده كما بدأه؛ ولهذا قال: ﴿وهو الذي يحيى ويميت﴾ أى: يحيى الرمم ويميت الامم، ﴿وله اختلاف الليل

(١) السنن الكبرى للنسائي (١١٣٥٢).

(٢) البخارى (٤٦٩٣) ومسلم (٢٧٩٨ / ٣٠).

وَالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ أَي: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، يتعاقبان لا يفتران، ولا يفترقان بزمان غيرهما، كقوله: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ الآية (يس: ٤٠). وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١١﴾ أَي: أفليس لكم عقول تدلکم على العزيز العليم، الذي قد قهر كل شيء، وعز كل شيء، وخضع له كل شيء.

ثم قال مخبراً عن منكرى البعث، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَأَلَدًا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتُمْ تُحْيَوْنَهُمْ﴾ يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعنون: الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخباراً عنهم: ﴿أَوَلَمْ نَكُنْ عِظَامًا نَخْرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذْ كُنَّا خَاسِرِينَ . فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاعِرَةِ﴾ [النارعات: ١١ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانَ إِذَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

﴿قُلْ لَيْنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٢﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿١٧﴾ بَلْ أَنْتُمْ بِالْحَقِّ وَالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾

يقرر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أن الله الذي لا إله إلا هو، ولا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئاً، ولا يستبدون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه رضى: ﴿مَنْ تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فقال: ﴿قُلْ لَيْنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ ؟ أَي: من مالکها الذى خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والشمرات، وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أَي: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك ﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَي: لا تذكرون أنه لا تنبغى العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أَي: من هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب والنيرات، والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم، يعنى: الذى هو سقف المخلوقات . وقال الضحاك، عن ابن عباس: إنما سمي عرشاً لارتفاعه. وقال مجاهد: ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فلاة. وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر أحد قلبه. وفى رواية: إلا الله عز وجل<sup>(١)</sup>. ولهذا قال هاهنا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعنى: الكبير، وقال فى آخر السورة: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيمِ﴾ أَي: الحسن البهى. فقد جمع العرش بين العظمة فى

(١) الحاكم فى المستدرک (٢ / ٢٨٢) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ووافقه الذهبى.

الاتساع والعلو، والحسن الباهر؛ ولهذا قال من قال: إنه من ياقوته حمراء. وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور انعش من نور وجهه. وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِيْلَهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أى: إذا كنتم تتفرون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه، فى عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى: بيده الملك ﴿مَنْ دَابَّةٌ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦] أى: متصرف فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا، والذي نفسى بيده»، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال: «لا، ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخَفَّرُ فى جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لثلاثا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أى: وهو السيد العظيم الذى لا أعظم منه، الذى له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، الذى لا يمتنع ولا يخالف، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الانبيا: ٢٣]، أى: لا يُسأل عما يفعل؛ لمعلمته وكبريائه، وقهره وغلبته، وعزته وحكمته، والخلق كلهم يُسألون عن أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لَلَّهِ﴾ أى: سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه، هو الله تعالى، وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنَّى تُشْعُرُونَ﴾ أى: فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك. ثم قال تعالى: ﴿بَلْ آتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَأَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أى: فى عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك، كما قال فى آخر السورة: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لأبائهم واسلافهم الجبارى الجهال، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ آثَابِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّقَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٦﴾

يتزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك، والتصرف والعبادة فقال تعالى: ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى: لو قدر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما خلق، فما كان يتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود متظم متنسق، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط ببعضه ببعض، فى غاية الكمال، ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعملو بعضهم على بعض؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ هُمَا يُصِفُونَ﴾ أى: عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً. ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: يعلم ما يتغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَصَلَّىٰ هُمَا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون.

﴿ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تَرَبَّيْتَنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الْفٰكِلِيْنَ ﴿٩٩﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقٰدِرُونَ ﴿٩٨﴾ اَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ اَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ اَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطٰنِ ﴿٩٦﴾ وَاَعُوذُ بِكَ رَبِّ اَنْ يَحْضُرُوْنَ ﴿٩٥﴾ ﴾

يقول تعالى أمرًا نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿ رَبِّ إِنَّمَا تَرَبَّيْتَنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ أي: إن عاقبتهم - وأنا أشاهد ذلك - فلا تجعلني فيهم، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي - وصححه: «وإذا أردت بقوم فترة فتوفى إليك غير مفتون» (١). وقوله: ﴿وإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقٰدِرُونَ﴾ أي: لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن.

ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسىء، ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة ويفضه محبة، فقال: ﴿ اَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ اَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴾، وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿ اَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ اَحْسَنُ فَاِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَاَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلْقَاہَا اِلَّا الَّذِيْنَ صَبَرُوْا ﴾ الآية (فصلت: ٣٤، ٣٥): أي ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة أو الصفة ﴿إِلَّا الَّذِيْنَ صَبَرُوا﴾ أي: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح ﴿وَمَا يُلْقَاہَا اِلَّا ذُوْ حَظٍ عَظِيْمٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ اَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطٰنِ ﴾: أمره أن يستعيذ من الشياطين، لأنهم لا تنفع معهم الخيل، ولا يتقادون بالمعروف. وقوله: ﴿ وَاَعُوذُ بِكَ رَبِّ اَنْ يَحْضُرُوْنَ ﴾ أي: في شيء من أمري؛ ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهرم، وأعوذ بك من الهلثم ومن الفرق، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت» (٢). وروى الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيراً لا يعقل أن يحفظها، كتبها له، فعلقها في عنقه. ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، قال الترمذي: حسن غريباً (٣).

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٢٠٠﴾ لَعَلِّيْ اَعْمَلُ صٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا اِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قٰبِلُهَا وَمِنْ وَّرَآئِهِمْ بَرَزَجٌ اِلَىٰ يَوْمِ يَبْعَثُوْنَ ﴿٢٠١﴾ ﴾

يخبر تعالى عن حال للحنضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته؛ ولهذا قال: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّيْ اَعْمَلُ صٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ اَنْ يَأْتِيَّ اَحَدَكُمْ الْمَوْتُ ﴾ إلى

(١) المسند (٥ / ٢٤٣) والترمذي (٣٢٣٥). (٢) أبو داود (١٥٥٢)، وصححه الألباني.

(٣) المسند (٦٦٩٦) وأبو داود (٣٨٩٣) الترمذي (٣٥٢٨) والنسائي في السنن الكبرى (١٠٦٠١).

قوله ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ إلى قوله ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَبُذِلْنَا مِنَ الْقَعْقَاعِ فَنَشَقُّونَهَا لَنَا أَوْ نَزِدُّهَا فَنَعْمَلُ بِغَيْرِ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الاحزاب: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ رَبَّنَا﴾ إلى قوله ﴿وَأِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الانعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَدٌّ مِنْ سَبِيلِ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْسِنَا اثْنَتَيْنِ فَافْتَرَقَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ والآية بعدها [غافر: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يُتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَلَوْفُوا لَمَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة، فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم في غمرات عذاب الجحيم. وقوله هاهنا: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ كلاً: حرف ردع وزجر، أى: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه.

وقوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أى لابد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم. ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله: ﴿كَلَّا﴾، أى: لأنها كلمة، أى: سؤال الرجوع ليعمل صالحاً هو كلام منه، وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحاً، وكان يكذب فى مقاله هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوْا لَعَادُوا لَمَّا نَهَوْا عَنْهُ وَأِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار. وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَّرَائِهِمْ﴾: أى: أمامهم، وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة.

وفى قوله: ﴿وَمِنْ وَّرَائِهِمْ بَرَزَخٌ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال: ﴿مِنْ وَّرَائِهِمْ جَهَنَّمَ﴾ [الجنات: ١٠] وقال: ﴿وَمِنْ وَّرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]. وقوله: ﴿إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ﴾ أى: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء فى الحديث: «فلا يزال معذباً فيها»<sup>(١)</sup> أى: فى الأرض.

﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿

يخبر تعالى أنه إذا نفخ فى الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور ﴿فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾ أى: لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرثى والد لولده، ولا يلوى عليه، قال الله تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو كان أعز الناس عليه فى الدنيا، ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْرَأُ الْقُرْآنُ مِنْ أُخْبِهِ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ﴾ [آية: ٣٤ - ٣٦]. وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: الا من كان له مظلمة

(١) الترمذى (١٠٧١) وقال: «حسن غريب».

فليجن فليأخذ حقه: قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّمَا نُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾. وروى الإمام أحمد: عن السور - هو ابن مخرمة - قال: قال رسول الله ﷺ: «فاطمة بضعة مني، يقبضني ما يقبضها، ويسطني ما يسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسي وبسبي وصهرى»<sup>(١)</sup>. هذا الحديث له أصل في الصحيحين عن السور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة مني، يربيني ما يربها رابها، ويؤذيني ما آذاها»<sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْبَاطِلُونَ﴾ أي: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة. وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا. ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: ثقلت سيئاته على حسناته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خابوا وهلكوا، ويازوا بالصفقة الخاسرة؛ ولهذا قال: ﴿لِي فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي: ما يكون، دائمون مقيمون لا يظنون. ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَقَشَّنِي وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُونُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارُ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحِوْنِ﴾ قال ابن عباس: يعني: عابسون. وقال عبد الله بن مسعود: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحِوْنِ﴾ قال: ألم تر إلى الراس والمشيطة الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه. وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحِوْنِ﴾، قال: «تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرتة». ورواه الترمذي، وقال: حسن غريب<sup>(٣)</sup>.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنَادِي عَلَيْكُمْ فَاكْفُرُوا بِهَا كَذِبُونَ﴾ ﴿قَالُوا رَبَّنَا عَلَيْنَا سِقَوتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا سَالِكِينَ﴾ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾

هذا تفرع من الله وتوبيخ لاهل النار، على ما ارتكبه من الكفر والماتم والمحارم والمظالم، التي أوقعتهم في ذلك، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنَادِي عَلَيْكُمْ فَاكْفُرُوا بِهَا كَذِبُونَ﴾ أي: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت عليكم الكتب، وأزلت شبهكم، ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿كَلِمَاتِي لِي فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ عَزَّتْهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَسْنَا لِأَصْحَابِ السَّبْعِ﴾ [الملك: ٨ - ١١]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْنَا سِقَوتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أي: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن نتقاد لها ونتبعها، فصللنا عنها ولم نرزقها.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أي: رُدنا إلى الدار الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكُمْ بَأْسُهُ إِذَا دَعَى اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [خانر: ١١، ١٢] أي: لا سبيل إلى

(١) المسند (٤ / ٢٢٣)، والحاكم (٣ / ١٥٨) بنحوه وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه» ووافقه الذهبي.

(٢) المسند (٣ / ٨٨) والترمذي (٣١٧٦).

(٣) البخاري (٣٧١٤) ومسلم (٢٤٤٩ / ٩٣).

الخروج؛ لانكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون.

﴿ قَالَ اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا ۗ إِنَّهُ كَانَ قَرِيبًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۗ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۗ إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۗ ﴾

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿ اخْشَوْا فِيهَا ﴾ أى: امكثوا فيها صاغرين مهانين اذلاء ﴿ وَلَا تُكَلِّمُوا ﴾ أى: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي. قال ابن عباس: ﴿ اخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم فى الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ قَرِيبًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۗ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا ﴾ أى: فسخرتم منهم فى دعائهم إياى وتضرعهم إلى ﴿ حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي ﴾ أى: حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتى ﴿ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ أى: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۚ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَضَامَرُونَ ﴾ [الطغفان: ٢٩، ٣٠] أى: يلمزونهم استهزاء. ثم أخبر عما جرى به أوليائه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿ إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ أى: على إذاكم لهم واستهزائكم منهم ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ بالسعادة والسلامة والجنة، والنجاة من النار.

﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۗ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسَلَى الْعَادِينَ ۗ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۗ أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجِعُونَ ۗ فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ۗ ﴾

يقول تعالى منها لهم على ما أضاعوه فى عمرهم القصير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، لو صبروا فى مدة الدنيا القصيرة لغاروا كما فار أولياؤه المتقون، ﴿ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ أى: كم كانت إقامتكم فى الدنيا؟ ﴿ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسَأَلَ الْعَادِينَ ﴾ أى: الحاسنين ﴿ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿ لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى: لما آثرتم الفانى على الباقي، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ، ولا استحققتم من الله سخطه فى تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته - كما فعل المؤمنون - لفزتم كما فازوا.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ أى: أفظنتم أنكم مخلوقون عبثاً بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، وقيل: للعبث، أى لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم، لا ثواب لها ولا عقاب، وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل ﴿ وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَتَرْجِعُونَ ﴾ أى: لا تعودون فى الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦]، يعنى هملاً. وقوله: ﴿ قَسَالَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ أى: تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً، فإنه الملك الحق المتزه عن ذلك، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴾، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أى: حسن المنظر بهى

الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَأَنْتَبِهْنَاهُنَّ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾  
 وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره، وعبد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ﴾  
 أى: لا دليل له على قوله، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وهذه جملة معترضة،  
 وجواب الشرط في قوله: ﴿فَأِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أى: الله يحاسبه على ذلك. ثم أخبر: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ  
 الْكَافِرُونَ﴾ أى: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاه. وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾:  
 هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء، فالعَفْرُ - إذا أطلق - معناه: محو الذنب وستره عن الناس،  
 والرحمة معناها: أن يسده ويوقفه في الأقوال والأفعال.